الفصل الثالث
أول مهاجر إلى اللَّه

خروج عثمان:

وكانَ أولُ المهاجرينَ إلى الحبشةِ «عثمانَ» وزوجته «رقيَّةَ» بنتَ رسولِ اللَّه، وسارَ مع أصحابه حتى وصلوا إلى مكانٍ اسمُه «الشُّعيبة» وفيهمْ من يركبُ، وفيهم مَنْ يمشِي على قدميهِ، ووفقَ اللَّهُ المسلمينَ في هذا المكانِ المطلِّ على «بحرِ القلزم» – البحر الأحمر حالياً–، فجاءتْ سفينتانِ لتجارٍ حملوهمْ فيها إلى أرضِ الحبشة بنصفِ دينارٍ[1].

بحثُ المشركينَ:

فلما عرفتْ قريشٌ الخبرَ أسرعتْ تبحثُ عن عثمانَ وبقيةِ المسلمينَ وبالفعلِ وصلوا إلى البحرِ ولكنْ بعدَ فواتِ الأوانِ، إذ كانَ «المسلمُون» قد ركبوا السفينة، وسارتْ بهمْ، فلمْ يدركوا أحداً منهمْ[2].

حديثُ «أنسٍ»:

يروي «أنسُ بن مالك» هذا الحدث فيقول:

– «أولُ مَنْ هاجرَ إلى الحبشةِ عثمانُ، وخرجتْ معَهُ ابنةُ رسولِ اللَّه،

١– تاريخ الطبري – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف – ج٢– ص٣٢٩.

٢– المرجع السابق.

فأبطأَ على رسولِ اللَّهِ خبرهمَا، فجعلَ يتوكفُ – أي يحاولُ معرِفة الخبرَ – فقدمتْ امرأةٌ من قريشٍ من أرضِ الحبشةِ فسألهَا فقالتْ: – «رأيتُها».

فقالَ الرسُول لهَا:

– «علَى أيِّ حالٍ رأيتهَا؟».

قالتْ:

– «رأيتُه وهو يحملُها على حمارٍ من هذِه الدوابِ وهو يسوقُ بهَا».

فقال الرسول ﷺ:

– «صحبهُمَا اللَّهُ. إنْ كانَ عثمانُ لأولَ مَنْ هاجرَ إلى اللَّهِ بعدَ لوطٍ وزوجتهِ»[1].

إنَّه الرسول ﷺ، وهو مستجابُ الدعاءِ، يدعُو ربّه أن يحفَظَ «عثمَانَ» والسيدَة «رقيَّةَ» من كُلِّ مكروهٍ وسوءٍ، ثم يذكُر «عثمانَ» بالخيرِ الكثيرِ، إذْ إنه أول مهاجر في سبيل اللَّه، يخرجُ تاركاً ديارهُ، وقومهُ، وكلَّ ماله في سبيلِ دينه، إنه أولُ مهاجرٍ بعد نبيِّ اللَّه «لوطٍ»، ويا لها من منزلَةٍ عاليةٍ اختاره اللَّهُ لهَا، وصبرَ عثمان لأجلِها مطيعاً أمرَ ربِّه، فاستحقَّ بها رضاهُ.

١– عثمان ذو النورين –محمد رضا– ص١٢.

بدايةُ هجرةِ المسلمينَ إلى الحبشةِ:

وسارَ المسلمونَ المهاجرونَ إلى ربهمْ يتقدمهمْ «عثمانُ» وإلى جوارِهِ زوجُه بنتُ الرسول ﷺ السيدةُ «رقية» حتى وصلُوا إلى «الشُّعيبَة» وهي ميناءٌ يركبُ منهُ الذي يريدُ السفرَ بحْراً، فلمْ يتمهَّلوا، ولقدْ كانَ فيهمْ الراكبُ، والماشِي الذي تعبَ من المسيرِ، ولكنْ لا وقتَ للراحةِ فإنَّ قريشاً قد خرجتْ خلفهمْ تبحثُ عنهمْ، وهي إن وصلتْ إليهمْ فلنْ تتركهُم، إذن لا بدَّ من الإسراع . .

توفيقٌ من اللَّه:

ولأنَّ اللَّهَ كانَ قد قدَّرَ للمسلمينَ التوفيقَ، فلقدْ أحاطهُمْ بعنايتِهِ وحرسهمْ من أذى المشركينَ، لأنهمْ صدَقوه النيةَ، وأحسنُوا التوكلَ عليه وكانَ من فضلهِ عليهم أن هيأ ساعةَ وصولهمْ إلى «الشُّعيبةَ» الميناءِ الذي سيركبونَ منهُ سفينتينِ مسافرتينِ، فلمْ ينتظروا، وبعدما ركبوا في أمانٍ، وصلت قريشٌ إلى المكانِ، لقد كانَ رجالهمْ يسرعونَ، يريدونَ الوصولَ إليهمْ، لكي يمنعوهمْ من إتمام الهجرةِ، ولكنَّ اللَّهَ غالبٌ على أمرهِ؛ لقد وصلوا بعدمَا تحركتِ السفينةُ في البحرِ، وصارَ المسلمونَ بعيدينَ عن متناولِ أيديهمْ، فوقفوا لا يدرونَ ماذا يفعلونَ، وقد امتلأتْ قلوبهمْ ندماً وحسرةً وغيْظاً.

في الحَبَشَةِ:

وتحركتِ السفينةُ في «البحرِ الأحمرِ»، وأصبح المسلمونَ في مأمنٍ، ارتاحُوا من شرِّ المشركينَ للمرة الأولىَ منذُ أسلمُوا، وعلموا أن رحمةَ اللَّه قد تداركتهُم فحمدوهُ، وتمنوا منه أن يُتمَّ فضله عليهمْ بوصولهمْ سالمينَ إلى الحبشةِ، وأتمَّ اللَّهُ لهم نصرَه، فوصلتِ السفينة، ونزلوا منهَا، فأحسنَ «النجاشيُّ» إليهمْ، بأن تركهمْ يعبدونَ اللَّه في طمأنينةٍ، فأحسُّوا بالاستقرارِ الذي افتقدوُه لخمسِ سنواتٍ مضتْ، وأصبحَ في استطاعتهمْ العيش دونما قلقٍ أو خوفٍ من عذابٍ، ولم يُسْمِعْهُم أحدٌ كلمةً تؤذيهمْ[1].

وحاولَ المشركونَ استردادَ المهاجرينَ وطلبهم من «النجاشي» ولكنَّ اللَّه خيبَ سعيهمْ.

مولدٌ مباركٌ:

استقرَّ «عثمانُ» وزوجُه في الحبشةِ فترةً قليلةً، لكنها كانتْ بعيدةً عن أذَى المشركينَ، مطمئنينَ يتابعونَ أخبارَ المسلمينَ في «مكةَ» وفي هذهِ المدةِ وضعت السيدةُ «رقيَّةُ» مولوداً مباركاً فأسماهُ «عبدَاللَّه»[2].

١- تاريخ الطبري -جـ٢-ص٣٢٩.

٢- عثمان - ذو النورين - محمد رضا - ص١٤.

عودةُ «عثمانَ» إلى «مكةَ»:

وسمعَ الصحابةُ في الحبشةِ أن «أهلَ مكةَ» قد دخلُوا في الإسلامِ جميعاً فقررُوا العودةَ إليهَا، وركبوا بالفعلِ سفينةً حملتهُم إليهَا، حتَّى إذا اقتربُوا منهَا، وصلَ إليهمْ أن هذَا الخبرَ باطلٌ، فمازالَ «أهلُ مكةَ» على كفرهمْ وعنادهمْ، ومازالُوا حريصينَ على أذى المسلمينَ، فلمْ يستطعْ أحدٌ منهمْ أن يدخلها إلا في حمايةِ واحدٍ من كبرائها، أو سراً حتى لا يعرفهُ واحدٌ من المشركينَ، وكانَ مَمَّنْ وصلوا إلى مكةَ «عثمانُ» وقرَرَ ألا يعودَ ثانيةً إلى «الحبشةِ» وأن يقيمَ معَ الرسول ﷺ، فلقد كانت نفسُه ممتلئةً بالشوقِ إليهِ.

فِي مكةَ:

استمرَّ «عثمانُ» في مكةَ على دينِهِ، ومواصلةِ الدعوَةِ إلى اللَّهِ بالقولِ الحسَنِ، والعملِ الصالحِ صابراً محتسباً ما يلاقيهِ من أذى، وقد اعتادَ المسلمونَ أن ينادُوه باسمِ ابنهِ، فُعرِفَ بكنيتهِ «أبو عبدِاللَّه»، وقد كانَ «عثمانُ» محباً لابنهِ، يراهُ يكبرُ وينمُو أمامَه، فتزدادُ محبتهُ له، فكان قرة عين له وقد تعلق به عثمان كثيراً وكان ذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾، وبلغ ابنُه ستَّ سنواتٍ فمرضَ مرضاً مفاجِئاً، إذْ إنَّ ديكاً أصابَ إحدَى عينيهِ، فورمَ وجههُ، وتوفاهُ اللَّهُ تعالى.

حزنَ «عثمانُ» لمفارقةِ ابنه، ولكنَّ حزنهُ لم يجعلهُ يقولُ ما يغضبُ ربَّه بل إنَّه قد ودعَه بالدعاءِ الصالحِ لَه بأنْ يدْخله اللَّه جنَّتَه، وأن يجعَلَ صبرَهُ على فقدِه لولدِه ذخْراً في ميزانِ حسناتِه، وبنفسٍ حزينةٍ لكنْ مطمئنةٍ راضيةٍ بقضاءِ اللَّهِ، صلَّى الرسول ﷺ على الفقيدِ الصغيرِ صلاةَ الجنازة، ونزلَ «عثمانُ» مع ابنهِ إلى القبرِ، فأودعهُ هناكَ وصعدَ، كيفَ يتحملُ أبٌ مثلَ هذا الأمْر؟ نعمْ لقدْ تحملَه «عثمانُ»، ذلكَ لأنهُ المؤمنُ، المطيعُ لربِّه، الصابر على كلِّ ما يصيبهُ.